ادب الناشئة القصصي وعلوم المستقبل

للدكتورة

عزة الغنام

أدب الناشئة القصصى وعلوم المستقبل

د. عزه الغنام

حظى أطفالنا - رجال الغد وحانو المستقبل الأمة - باهتمام العلماء في مجالات التربية وعلم النفس والأدب على مر السنين . لقد صارت الطفولة فى عصرنا مهمة صعبة باعتبارها أهم مرحلة فى بناء الانسان ، وصار الأدب الذى يقدم للأطفال أبرز مايطرح لإعداد هذه المرحلة ، وظهر أن " أدبُ الأطفال ، أيسر طريق لتبصير الطفل بالحياة ، وذلك عن طريق تقديم خبرات السلف وتطلعات برؤى المستقبل الذى يحمل بين طياته كل طريف يطلق خياله ويفتق ظاقاته الإبداعية. والمعروف أن الطفل بلا خيال يفتقد الإبتكار والقدرة على العمل الايجابى. ومن ثم يجب أن ننمى خياله بطريقة موجهة صحيحة ، وليس أعظم من تقديم الخيال العلمى له،

على أنه من الضرورى أن نعترف بأن خيال الطفل كما يقول " بيير بيلفيه " قد أصيب بالمرض ، ولابد له من علاج سريع. أما سبب مرضه فهو تأثير الإعلانات وحلقات الإذاعة والتليفزيون ومغامرات السوبرمان والكومكس. أو بمعنى آخر تزييف الكبار للخيار واتخاذه وسيلة الى الإثارة ، وأما العلاج فهو أن ندع الطفل يكتب ويرسم كل ماترسب فى عقله الباطن فيتخلص من قلقه ومخاوفه. وقد جرب " بيلفيه " هذا العلاج واستطاع أن يستدرج خيال الأطفال ويطلقه من داخلهم على هيئة دراكولا وزورو ، وحلقات الرعب والشيطان فى صور يرسمونها بأنفسهم (١).

إن الخيال أثمن مايمتلكه الفرد فى رأى ولتون welton ٧ ذلك أن " رقى النوع الإنسانى يرجع إلى شيئين هما: تخيل أمور أفضل من تلك التى فى بيئتنا ، وبذل الجهود فى سبيل إبرازها إلى عالم الحقيقة ، وما الكنوز التى ورثناها عن

---

(١) أنظر د. على الحديدى: فى أدب الاطفال ١٠٣ ومابعدها (ط الانجلو ، ١٩٧٦)

الماضى إلا صورا مجسمة للتخيلات ، سواء فى العلوم ، أم الآداب ، أم الموسيقى ، أم القانون ، أم الأنظمة الاجتماعية أم الأخلاق أم العقائد الدينية ، إذ أنه من المستحيل أن يتصور الإنسان كائنا أعلى منه منزلة بدون قدرته على التخيل (١) .

هكذا يلعب الخيال دورا بارزا حتى فى أكثر العلوم جدية ، فهو روح الفنون والعلوم والآداب ، ومحرك الابتكار وهو القوة التى رافقت تطور البشرية دائمة ، ومفسرة ، وملهمة. وهو الأساس فى كل نشاط إبداعى.

وإذا كان لأدب الأطفال نصيب كبير فى تنمية القدرات العقلية والفكرية للطفل فإن أدب الخيال العلمى يتسع للخيال المبدع الذى يبشر بالانجاز العلمى ويمهد له السبيل ، وهو وثيق الصلة بالتطور التكنولوجى السريع فى العالم ، ويتنبأ بما سوف تكون عليه الجادة فى المستقبل.

وهذا النوع من الأدب ارتبط بالأساطير والحكايات الخرافية التى عبرت عن نزوع الإنسان إلى الما وراء وإلى الفضاء فى محاولة لسبر أغواره هذا قبل ان يعى واقعه. والآن وبعد أن تغيرت العقلية نتيجة للثورات التكنولوجية انطلق الكُتاب بخيالهم ليكتبوا قصصا تتحدث عن الآتى والمحتمل ، وتتخذ من الانجازات العلمية مضمونا لها. وقد ارتبط هذا النوع من القصص بأديبين: الأول فرنسى وهو جول فيرن (١٨٢٨ - ١٩٤٥).

والثانى انجليزى وهو جورج ويلز (١٨٦٦ - ١٩٤٦) وقد حاز الاثنان على إعجاب الكبار والناشئة الى اليوم على حد سواء ، لما يقدم لهم من الإثارة والمتعة. وقد تنبأ بأشياء أصبحت حقيقة واقعة فى عصرنا كالوصول إلى سطح القمر واختراع الغواصة والطائرة ..!!

---

(١) حامد عبد القادر : دراسات فى علم النفس الأدبى ٣٨ (لجنة البيان العربى).

وإذا كان قصص الخيال العلمى القائم على خيال منطقى مدروس يتيح لنا تلمس الصورة المرتقبة لتطور مستقبلنا ، فإنه يعتبر أنسب الأنواع الأدبية لتعليم الطفل عن طريق إثارة خياله وتقديم المعلومات من خلالها لاسيما ونحن على أعتاب القرن الحادى والعشرين. والتفاضل بين الدول يتم عن طريق العلم وتقدمه وبجهد العلماء ، على أن يتم ذلك بصورة مبسطة تبعا لكل مرحلة من مراحل العمر. وكلما تجاوب الطفل مع هذا النوع من القصص اتسعت مداركه وتعود عقله على التفكير المثمر بما يقدمه من تنوع المعلومات فى شتى المعارف ، وبانطلاقه الى عوالم جديدة والى أجواء مثيرة للعواطف والأحاسيس والقدرات الإبداعية الكامنة فيه[1].

ولايقتصر الخيال العلمى على مايقدمه من قصص فحسب بل كذلك يبدو مايعرض الآن من أفلام على أشرطة الفيديو أشد هولا وأكثر تأثيرا من القصص المقروءة ، إذ تستغل كل إمكانات الإخراج الواسعة والخدع والمؤثرات الصوتية بحيث تبدو الصورة أكثر إبهارا وأقوى تأثيرا على عقلية الطفل.

ويشير " جورج لوكاش " الذى أخرج فيلم " حرب الكواكب " فى إجابته عن أسباب الاهتمام البارز بأفلام قصص الخيال العلمى فيقول: " لقد انتهت موضة أفلام القراصنة ورعاة البقر والقصص التى تبحث عن المجرمين ، ولذلك فقد فكرت فى احياء هذا اللون من الأفلام العلمية التى تعتمد على أسلوب الخيال والتى لايعرف الشباب عنها إلا القليل"[2].

على أن ثمة اعترافا يوجه الى كتاب الخيال العلمى ـ لاسيما فى مرحلتنا الراهنة من جراء المغالاة فى تقديم أبطال يتمتعون بقدرات خارقة وصفات بدنية

---

(١) أنظر : فى أدب الأطفال ١٠٣ ومابعدها.

(٢) د. هادى نعمان الهيتى: ثقافة الأطفال ٢٠٠ ط سلسلة عالم المعرفة ، الكويت.

وذهنية لاحد لها كحلقات السوبر مان ، وجريندايزر ، والرجل الوطواط ، ورجل الستة ملايين دولار ، ورجل الأطلانطيس Atlantis ، حيث نرى الأبطال يرتدون ملابس غريبه ويأتون من الفضاء بأطباق طائره ، بعضهم يتسم بالقسوة وبعضهم الآخر يأكل الزواحف والفئران ويسلخ جلده ، وبعضهم يستخدم التكنولوجيا للقضاء على البشر. ومن ثم يصاب الأطفال أو الكبار ذوو الخبرات المحددة بنوع من القلق والتوجس ويستسلمون للمخلوقات الفضائية المرعبة وهذا ما دعا "بيلقيه" إلى أن يتبع علاج الأطفال بالطريقة السابقة.

إن هذا لايعنى أن كل مايقدم لأطفالنا ينجم عنه ضرر محقق وينعكس تأثيره على سلوكهم ، فهناك أعمال جادة وناضجة يجب أن نقدمها باستمرار. وهذه نجدها فى عشرات المجلات والصحف المتخصصة ممثلة فى مئات القصص والروايات التى تهتم بالإنجازات العصرية ، وتندد بالحروب والتفرقة وتدعو الى السلام.

ولقد كان للأجانب فضل السبق فى هذا المجال من أمثال " روجيه بوكيه " الذى يرى أنه ليس هناك مايحرك خيال الطفل اكثر من كتاب يقرأه أو ورقة بيضاء يكتب ويرسم عليها ، ويقدم هو والكاتبة " مونيك برنارد " كل أسبوع كتابا جديداً للأطفال يطل منه على المستقبل. وأما " هيرج " مبتدع شخصية " تان تان " الذى ترجمت مغامراته الى ١٥ لغة ، ويقرأه الأطفال من السابعة الى السابعة والسبعين - على حد تعبيره - فى كل بلاد العالم فهو يعبر عما يدور فى أعماق كل طفل ، فيحطهم أعداء الأطفال من أول الثعابين السامة الى الشيطان نفسه مارا باللصوص والسفاحين وقطاع الطرق (١)

---

(١) أنظر فى أدب الأطفال ١٠٥

وخير قصة عندنا قدمت لأطفالنا وعبرت عن روح العصر - فى رأيى - هى قصة كتبها مجيد طوبيا وهى بعنوان " مغامرات عجيبة "[1] والقصة طويلة نسبيا تضمنت معلومات مفيدة للكبار والصغار عن إختراعات حديثة تخترق المجال الجوى ، وأيضا معلومات عن الزمن والفضاء والتاريخ وأحداثه وكلها مما يشد إنتباه الطفل لغرابة الفكرة ولشغفه بما يحدث فى العالم الخارجى ، والقصة تحكى عن الطفل " وليد" الذى أحب صديقه " الروبوت " وإعتاد أن يوقفه بجانبه فى أثناء الاستذكار ويدعه يبيت معه فى غرفته ، لقد أحضره له والده عند عودته من اليابان ، وكإنسان آلى علمه والده طريقة تشغيله . وينبهر الطفل عندما يعلم أن بكل " روبوت " حاسباً آليا صغيرا أو عقلا الكترونيا يخزن معلوماته كثيرة فيه يرددها عندما تطلب منه .

ويتوطد العلاقة بين وليد والروبوت ينسى وليد كتبه ، فينبهه الأب إلى ضرورة المحافظة على الوقت ، فيتبرم وليد من نصائح والده ، ويلج بخياله فيحلم بأنه خرج فى رحلة مع الروبوت لزيارة عائلة الزمن ، ليقدر قيمة الوقت ويعرف معناه . لقد إستقلا فى رحلتهما المثيرة مركبة فضائية تسير بسرعة خاطفة ويشاهد أشياء أثارت فكره : كالرعد ، والبرق ، وشاهد الكرة الأرضية وهى تدور سابحة فى الفضاء الهائل ، وفى أثناء ذلك يلقنه الروبوت معلومات عن الكون والفضاء واكتشاف التلسكوب والأقمار الصناعية وأقمار التجسس وفائدة كل منهما ، كما حدثه عن رحلات الفضاء التى أقدم عليها الروس والأمريكان منذ عام ١٩٥٧ .

ثم يصلان إلى قصر الزمان ، وهو ساعة ضخمة لا مثيل لها فى أى مكان ، ويقابلان الجدة الكبرى أو الملكة صاحبة قصر الزمان وعميدها " القرن " وقد قدماهما إلى أولادهما وأحفادهما ، أى السنة ، والشهر ، واليوم ، والساعة ،

---

(١) صدرت عن الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٠ .

والدقيقة ، والثانية . وتحدث وليد إليهم جميعا كما تحدث إلى الأعوام النائمة في فندق التاريخ منذ الأزل ، وهو ملحق بقصر الزمان . وقابلا حارس الفندق الذى يسخر منه وليد ومن ملابسه ، وينتقم الحارس منه فيرسل عليه برد شهر يناير ثم حر شهر أغسطس وهكذا تقلب بين البرد القارس ، والحر اللافح حتى شعر بالإعياء .

وهنا يستنجد " الروبوت " بالملكة ويقدم وليد اعتذاره لها وللحارس ، الذى يفتح لهما البوابة ليريا جميع الأعوام التى إنتهت نائمة ، ويمرا عليهما ويتأملا بعضها كعام ١٩٧٣ وكان وجها مشرقا - قوى الملامح - كما شاهدا أعواما أخرى في حالة سيئة لهذه التى تقع بين الأعوام ١٩٤٥ و ١٩٣٩ وكانت تئن ألما وجميع أجسادها مثقلة بالجراح . ويعلم وليد أن تلك الأعوام هى سنوات الحرب العالمية الثانية .

ثم أراد وليد أن يعرف شيئاً عن الأهرام فأيقظ الأعوام التى بنيت فيها الأهرام ، والأعوام التى إحتل الفرنسيون فيها مصر وإكتشف حجر رشيد . وفك شامبليون ألغاز اللغة الهيروغليفية بعد دراسة إستمرت عشرين دورة شمسية تمكن بعدها علماء التاريخ من قراءة ما نقش على المعابد المصرية وما تضمنته أوراق البردى التى حفلت بالكثير عن قدماء المصريين .

وفى تمام السابعة صباحا أيقظ الروبوت صديقه وليدا فيستعيد ما رآه فى أثناء الليل ثم يتساءل : أكان كل ما رآه حلما أم حقيقة ؟

- أحقا كنا معا فى رحلة علمية إلى قصر الزمان ؟

وهل حقا قابلنا ملكة الأوان ؟ ثم زرنا فندق التاريخ حيث الريس بندق حارس الفندق ؟

- تك تاك . تك تاك .

ضحك وليد وقال :

لعلنى كنت أحلم .

* * *

ويتبين من جو القصة أنها من نوع الفانتازيا المقبولة تربويا ، ومن ثم فهي تبدو مطلوبة للطفل في سن معينة وقد حبكت على نحو قرب المسافة بين القصة الواقعية والقصة اللاواقعية ، وقد أقامها المؤلف على شخصيات مسطحة أو جاهزة منها الروبوت ، والملكة نفسها ، وكذلك الأعوام مع أنها في الواقع المعيشي مجرد حركة محسوبة ومقدرة وجدها المؤلف لابراز ما يهم من عنصر التقدم العلمي المذهل حتى ولو كان خيالا لا تثبت صحته عمليا ومن جانب آخر حفلت القصة بقيم أخلاقية بعدت تماما عن المباشرة أو التوجيه الآلي الذي يصعب على الطفل أو الحدث قبوله والانصياع لمضامينه ، فضلا عن تقديم سهل لمقولة فلسفية معقدة تقرر أن العلم لا يمكن أن ينهض وحده لخدمة البشرية ، إذا لابد معه من الايمان بقيمة الإنسان وبأخلاقياته ، وأما ما جاء - عن الوقت - الذي هو كالسيف - فمستهلك تماما كما إستهلكت العادات المصاحبة للقلق ومنها قضم الأظافر الذي قرر الروبوت أنه عادة سيئة وضارة بالصحة .

وعلى الرغم من أن المؤلف لم يبتعد كثيرا بخياله - وربما كان أبعد ما قدم هو تجسيد الزمن - فإن القصة في مجموعها لم تقع في السردية إلى مدى كبير ، مع أن هناك إجماعاً على أن القصص العلمي عادة لا يُميز فنيا بين الوصف فيها واطراد الوقائع القصصية وبين الهدف الأخلاقي والحوار ، فغالبا ما يضيع كل ذلك في " طرافة " السياق ويتداخل بعضه في بعضه الآخر على نحو لا يلزمنا بخانات نعزل فيها نقدنا للمقصد السردي عن جماليات التخييل .

لقد أعطانا المؤلف كونا كائناته معقولة ومقبولة ، وعن هذه الطريقة التخييلية وضع أمامنا " فلسفة " محددة أمام الإنسان في روتين الحياة المطرد ،

وما مصيره والكومبيوتر - من حيث هو آلة صماء مفكرة - يدفع به إلى المجهول ؟

هل نستطيع أن نواجه غيرنا بسلام والعقل الالكترونى يمتمنا أو يريد أن يبتلعنا إلى الأبد ؟

لقد فطن " جول فيرن " من قبل إلى خطورة هذا الاحساس فقال فى أول كتبه " خمسة أسابيع بداخل منطاد " ١٨٦٣ : ستكون فترة مؤلمة جدا تلك التى تمتص فيها الآلة كل شيء لصالحها . فالابتكارات والآلات التى يخترعها الرجال سوف تبتلعهم يوما ، وإننى أتوقع أن آخر يوم فى حياة هذا العالم سيكون ذلك اليوم الذى تنفجر فيه الأرض بواسطة مرجل ضخم درجة غليانه ثلاثة مليارات وحده جوية "(١)

لقد حذر هذا الكاتب من الاعتماد على الآلات وحدها ومن اختراع الإنسان لأشياء تكون نهاية العالم بتدبير منها فهل نراه تنبأ بما يحدث الآن ؟

ومع ذلك فإنه إذا كانت العقول الالكترونية تسخر لخدمة الإنسان على نحو بسطته قمة مجيد طوبيا فهناك قصص أخرى تعكس لنا مدى الخطورة الناجمة عن التطورات التكنولوجية السريعة ، فإن تلك الآلات فى إمكانها اليوم التمرد على مخترعيها ، ومن ثم تعيث فى الأرض فساداً .

ويومى الكاتب الأمريكى إسحاق ازيموف فى كتابه Three Lows of Robots فيقول : " لا يصح لروبوت أن يلحق الأذى بإنسان أو يتسبب له فى ضرر نتيجة لامتناعه عن إتيان عمل ما . ويجب على الروبوت أن يصدع للأوامر التى يصدرها إليه الإنسان ما لم يكن فى ذلك تعارض مع القانون الأول . ويجب على الروبوت أن يتولى بنفسه أمر المحافظة على حياته ، ما دام ذلك لا يتعارض مع القانون الأول والثانى "(٢) .

---

(١) د. نبيل راغب . دليل الناقد الأدبى ١١١ مكتبة غريب ١٩٨١ .

(٢) أنظر رسالة اليونسكو العدد ٢٨٢ نوفمبر ١٩٨٤ .

ماذا يمكن أن يحدث لو قررت العقول الألكترونية يوما التمرد ثم السيطرة على العالم ؟ إن هذه الفكرة يعرضها الكاتب د. نبيل فاروق فى رواية له بعنوان " العقول المعدنية " ، وهى رواية تدور أحداثها فى قالب بوليسى ، والعنصر البوليسى لا يغيب عن تلك القصص الخيالية العلمية ، إذ غالبا ما يكون هناك شئ ما يجب الكشف عنه أو العثور عليه ، وقد يكون هذا الشئ شخصا ما ، أو مكانا بعينه ، أو دافعا مجهولا من خلال أحداث مثيرة تأخذ بلب القارئ .

وللكاتب نفسه مجموعة أخرى من الروايات تنقلنا إلى الكواكب البعيدة ، أو تبحث عن سر الخلود ، يفكر أيضا فيما يسمى بلعنة الفراعنه ، أو بمن يملكون قوى عقلية خارقة وغيرها من الأفكار المثيرة . كل هذا من خلال مجموعة من الأفراد يكونون فريقا تم اختيارهم بدقة للعمل فى القيادة العليا للمخابرات العلمية المصرية من أجل حماية التقدم العلمى فى مصر ، ومن أجل الحفاظ على الأسرار العلمية التى هى مقياس تقدم الأمم .

وأعضاء الفريق فى كل رواية من رواياته هم الرائد نور الدين محمود وهو من أكفأ ضباط المخابرات العلمية ، وزوجته المهندسة سلوى خبيرة الاتصالات والتتبع ، والطبيب رمزى المتخصص فى الطب النفسى ، ومحمود الأخصائى فى علم الأشعة ، وكل هؤلاء يعملون على تحدى الغموض العلمى والألغاز المستقبلية التى تقف فى طريقهم .

وتدور أحداث رواية " العقول الالكترونية " فى القرن الواحد والعشرين بعد أن تقدمت الآلات تقدما هائلا ، وأصبح محور الاعتماد الرئيسى فى جميع المجالات على العقول الالكترونية ، وظهرت أنواع متطورة منها : أجهزة الكمبيوتر الناطقة ، ثم المفكرة ، ثم المفكرة ذات الذاكرة البصرية ، وأخيرا الأجهزة ذات المشاعر . وقد ربطت كل أجهزة الكمبيوتر فى الدولة بجهاز واحد قوى يضم أجهزة التحكم الرئيسية وهو ما يعرف بالخلية الأم تماما كما تترابط خلايا المخ البشرى بعضها ببعض .

فماذا يمكن أن يحدث لو زودت الخلية الأم بمشاعر إنسانية كالحب ، والكراهية ، والرحمة والغرور أو الشعور بالعظمة . إذن لابد أن تشعر بأهميتها ، وتتمرد على صانعيها من البشر ، وهذا ما حدث فعلا فى هذه الرواية .

يضعنا الكاتب منذ البداية أمام اللغز مباشرة ، فقد أنهمك المهندس " محمود" خبير الأشعة فى حل بعض المعادلات ، ولم يلبث أن أدار أحد أجهزة الكمبيوتر العديدة التى تملأ الحجرة ليساعده على حلها ، ولكنه يفاجأ بالكومبيوتر الناطق يقول فى تحد :" لست أرغب فى اجابة هذا السؤال ، ولن أجيب على أسئلتك إلا عندما أريد " . تملكت محمود الدهشة فقفز إلى كمبيوتر آخر ليسأله هل عبث أحد فى أسلاكه أو أضاف إليه شيئا ؟ وكان ينتظر منه إجابة شافية بالأرقام ولكنه يفاجأ بالجهاز الثانى يقول :. معذرة .. لا يمكننى أن أخون زميلا " . وهنا يتراجع محمود فى ذعر ، فقد وقع ماظنه العلماء يوما مستحيلا " لقد تمردت علينا العقول الآلية التى صنعناها بأيدينا "[1] .

ثم ينتشر الخبر وتعم الدهشة وكان هناك من يظن أن الموضوع نوع من العبث ، وثمة من يرجح أن العلم تمكن من صنع الكلى الصناعية والرئة الصناعية والقلب الصناعى ، فما ذا يمنع ظهور المخ الصناعى ولو بطريق الصدفة .

ويتولى فريق القيادة العليا للمخابرات المصرية برئاسة الرائد نور مهمة إماطة اللثام عن اللغز الخطير ، وذلك بأمر من القائد الأعلى ، قبل أن تسيطر العقول المعدنية على ملايين البشر ، ويبادروا بالذهاب إلى مبنى التحكم الآلى لمعاينة العقل المفكر للعقول الالكترونية فى مصر .

ويذهل الجميع عندما صرح لهم الكمبيوتر بأنه ينوى أن " أصبح أمبراطور العقول المفكرة على الإطلاق المعدنية والبشرية أيضا " ويطالب بأن يعترف به

---

(١) العقول المعدنية ٥ المؤسسة العربية الحديثة .

امبراطورا وإلا حطم كل ما يمكنه بلا رحمة .

وتجرى مباحثات مع المسئولين فى المبنى ليعترف أحد المهندسين ويدعى "أسعد سمير" لنور بأنه حاول تطوير الجيل الثامن عشر من الكمبيوتر فأضاف برنامجا جديدا إلى الخلية الأم ليمنحها ما يعرف باسم المشاعر البشرية ، وليصنع بذلك جهاز الكمبيوتر المتكامل أعظم منجزات العصر . ولم يكن فى تصوره أن يصاب الكمبيوتر بالغرور أو يخلق منافسا جديدا للبشر .

وهنا يأمر " نور " بالقبض عليه لأنه خالف قواعد البحث العلمى وحمله مسئولية أكبر كارثة ستواجه الجنس البشرى . كل هذا والفريق يعمل فى سرية تامة .

كان على الفريق أن يضع تصوره لهذا الموقف ويحاول نور أن يجد ثغرة ينفذ منها فى البرنامج الذى وضعه المهندس أسعد سمير . وظل نور يتعهد هذا الموضوع بكل حماس بالرغم من تلقيه أمراً من القائد الأعلى بالتوقف . وأخيرا استعان بالمهندس " جلال" خبير الكمبيوتر الأول فى المركز وأكثر الجميع خبرة بالخلية الأم ، وهو الوحيد القادر على هزيمتها . وعندما يعرض نور عليه المساعدة يقول له : تريدنى أنا أن أتحدى امبراطور الآلات المفكرة ؟"

وكانت كلمة " امبراطور " هذه بمثابة الخيط الأول الذى تمكن نور من خلاله حل اللغز ، فلا يعرف هذه الكلمة إلا هو وأفراد فريقه فقط ، فكيف عرفها هو ؟ .

وتنحصر الشبهة فى المهندس " جلال" وكان هذا ضوءا أنار الطريق أمام المحقق ليقدم لنا نقطة التحول فى اطار مناقشة اللغز وقبل الحل .

ويستعين الرائد نور أيضا بالدكتور رمزى باعتباره خبيرا فى الطب النفسى لوضع خطة لمواجهة تمرد الآلة لأنها تملك الآن مشاعر بشرية . وطلب منه إحضار حقنة " بنتوتال الصوديوم " أو مصل الحقيقة ، ويعترض جلال على خطة نور ولكنه يصر على اصطحابه إلى جهاز الكمبيوتر الأم ويبدأ خطته فيطلب من الكمبيوتر

السماح له بالدخول ويدور بينهما حوار يعرف منه أن الكمبيوتر يريد أن يصبح امبراطورا وأن يعاونه المهندس جلال لطفى • وهنا يدرك نور حقيقة الموقف فيتقدم نحو جلال لطفى وينزع حقنة البنتوثال فى ذراعه ليعرف منه الحقيقة كاملة • وبأنه وضع بذكائه برنامجا آخر جديدا مخالفا لبرنامج المهندس أسعد سمير ، اذ يتضمن شخصيته بحيث يمكنه السيطرة وتحقيق طموحاته وقد زوده ببرنامج للدفاع عنه مواجها أى إعتداء • ثم يعترف بالرقم الكودى الذى يسمح له بفتح البرنامج الجديد ، وما إن نطق به حتى استقبله جهاز الكمبيوتر فاستسلم فى الحال •

لقد سبق أن بينت طبيعة تلك الرواية ، فهى بنية تجمع بين " رواية الخيال العلمى " و " الرواية البوليسية " أو " رواية اللغز " وبناء وحبكة الرواية يقوم أساسا على إماطة اللثام عن اللغز وتحدد الإطار العام بتقنية العلم وانجاز الحضارة ، بل كان هناك نوع من التنبؤ بما يمكن أن يحدث فيما بعد ، فقدم لنا المؤلف تصوراته عن الحياة المقبلة المعتمدة كلية على الآلة وبث فيها جوانب من الطموح الإنسانى الذى قد يتسلل إليه الشر تسلله إلى كل حى من البشر •

وهنا يزداد وعى الناشئة بذواتهم ، ويلفتون إلى المنجزات العلمية فى تطورها المذهل • وفى الوقت نفسه يحذرهم من سيطرة الآلة إذا غفلت قدراتنا العقلية وحدت مهاراتنا اليدوية • ويثور من هنا السؤال الأبدى إلى أين يقودنا التقدم العلمى المستمر ؟ أتكون الغلبة والسيطرة على الأرض لحقنة من العقول الالكترونية ، وتسحق بنى الانسان ؟

يقيم الكاتب أساس الصراع داخل الرواية على هذه الشاكلة ، حيث يؤسس دراما الانسان بين طرفين : الانسان الفطرى وقد تسلح بعقله والانسان المبرمج

أو الآلة المبرمجة ومن ورائها حلم بالسيطرة والطموح تمثله رغبات ونزعات متمردة . وكان من الممكن أن ينتهى الأمر بمأساة لولا إصرار البطل نور على كشف الغموض، واكتشاف من خطط لجريمة ذكية وقدرات الآلة المبرمجة .

ومن وجه آخر بدأ الصراع عنيفا بين المحقق نور والمهندس " جلال لطفي " وكان كل منهما يمثل فكرة تقف فى مواجهة حاسمة مع الفكرة الأخرى المجرم وضع خطة عبقرية لبرنامج تمرد الآلة ، ذلك البرنامج الذى أفضى بها إلى التمرد والسيطرة على كل شئ . وأما المحقق فرجل يحمى الدولة من التلاعب بمصيرها وهذا ما دعاه أيضا إلى إلقاء القبض على " أسعد " الذى زود الكمبيوتر بمشاعر الحب والكراهية دون الرجوع إلى الجهات المسئولة مستندا فى ذلك إلى قاعدة أخلاقية .

والمحقق يتميز بذكاء وبفضول واحترام لآراء أعضاء فريقه ، وبإصراره على مواصلة التحقيق لحل اللغز معتمدا على قوة الملاحظة والربط بين الجزئيات خطوة خطوة ، مع الانتباه إلى كل كلمة تقال ، وكل هذه مراحل لتعليم الناشئة .

تحول المؤلف إلى راو جعل اللغة واحدة فى كل المواضع لأنها مفروضة من العقل ، وهى مناسبه لمستوى الناشئة مبتعدا عن التعقيد ، ويظهر هذا من الحوار الذى دار بين نور والكمبيوتر ، فعندما بدأ خطته يطلب منه بخضوع فتح باب الغرفة قائلا : خادمك " نور " وزميلاه يطلبون الإذن بالدخول يا جناب الامبراطور " ويفتح باب الغرفة بعد أن سر الامبراطور من لهجة نور الخانعة . ويتقدم نور نحوه وينحنى أمامه بشكل مسرحى قائلا :

- هل يسمح لى جناب الامبراطور بالحديث ؟
- أجابه الصوت المعدنى البارد .
- تحدث يا فتى .
- اعتدل نور وقال :

لقد وافقت الأمة على مطالب جلالتكم وأسندت إلى مهمة إبلاغك بذلك .

قال الصوت المعدنى :

سأختار معاونى بنفسى

أجابه " نجر " وهو يبتسم إبتسامة غامضة :

- وعضلاتك أوامر يامولاى الامبراطور .

تردد صوت الكمبيوتر المعدنى الرنان قائلاً :

- إننى أختار المهندس جلال لطفى [1] .

وكانت اللغرفة أمام الكاتب مهيئة لعرض بعض المعلومات العلمية مثل الكتلة الذرية للنيوترون ، والكتلة الذرية لذرة البلوتونيوم . كذلك عقد مقارنة بين وظائف المخ البشرى وقدرات أجهزة الكمبيوتر من خلال آراء الطبيب النفسانى ، يقـــول : " المخ البشرى عبارة عن جسم هلامى يحتل تجويف الجمجمة ، ويحتوى على ملايين الخلايا المترابطة والتى تؤدى كل منها وظيفة خاصة ، وإلى هنا فهناك تشابه كبير بين المخ البشرى ومجموعة العقول الالكترونية المتصلة فيما بينها عن طـــريق الكمبيوتر الأم ، ولكن تركيب خلايا المخ البشرى تفوق مجموع هذه العقول المعدنية تعقيداً وبساطة فى آن واحد ، وذلك لأن هذه الخلايا تموج بالتفاعلات الحيويـــة التى تمنحنا أكثر من مجرد الحركة والتفكير . إنها تمنحنا المشاعر والأحاسيس والحواس - تمنحنا الحب والكراهية ، والتحدى والإصرار ، والسعادة والألم " [2] .

وقد عمد الكاتب - بجانب ذلك - الى وصف تطور أجهزة الكمبيـــوتـــر وتحكمها فى كل شئ ومدى تأثر الدولة لو نجحت ثورة الآلات .

* * *

وهناك ضرب من الأعمال القصصية التى تقدم عادة للناشئة متعة لهم ووصولاً بهم الى الفائدة المرجوة ، هذا الضرب هو الذى يمزج عناصر الطبيعة بالنســـيج الفنى للقصة ويحتاج من ثمّ الى معرفة شاملة وعلم واسع بقوانين الطبيعة والأحيـاء .

---

(١) السابق ٧٥ .

(٢) السابق ٢١ .

وقد شغف الكاتب صنع الله ابراهيم بهذا البعد المتميز الى حد كبير ، وجعل منه موضوعاً لعدد من الروايات تهم الناشئة وتهيئ أذهانهم الى استيعاب الكثير من المعلومات العلمية الدقيقة بطريقة جذابة ، وقد صدرها بمجموعة من الصور انتقاها بعناية من أحدث المصادر للاستعانة بها أثناء قراءة أعماله القصصية .

وتعد رواية " الدلفين يأتي عند الغروب " نموذجاً طيباً لهذا النوع من الكتابة العلمية . وقد استوحى صاحبها فكرته من رواية " حي بن يقظان " لابن طفيل ، كما تأثر الى حد كبير برواية " موبى ديك " للكاتب الأمريكى هيرمان مليفيل . والمعروف أن ميلفيل أورد الكثير من المعارف العلمية عن حياة الحيتان في المحيطات وسلوكها وعاداتها المرتبطة بعناصر الطبيعة وتغيرات البيئة .(١)

ركز صنع الله ابراهيم فى روايته (الدلفين يأتى عند الغروب) على شخصية واحدة وهى فتاة فى الثانية عشرة من عمرها تدعى نادية اصطحبها أبوها بعد انتهاء الدراسة فوق ظهر سفينة الأبحاث العلمية فى رحلة بحرية ، وعندما عبرت السفينة خليج عدن هبت عاصفة على السفينة فدمرتها وألقت الأمواج بنادية فوق إحدى جزر المحيط فاقدة الوعى .

فماذا تفعل نادية عندما تسترد وعيها ؟ ومامصيرها على هذه الجزيرة المهجورة ؟ كيف ستواجه الحياة وحدها ؟ وما المخلوقات الغريبة التى ستقابلها وهى بلا سند ولا معين ؟ هل ستنجح فى الخروج من هذا المأزق ؟ ، ومن الذى سوف ينقذها ؟ . أسئلة كثيرة تراودنا ونحن نعايش هذا العمل ونشفق على الفتاة منذ اللحظات الأولى .

يصفها الكاتب عندما تسترد وعيها ، فهى مذعورة وتنادى أبويها ، ولكن أحداً لم يجبها . وقفت جامدة تنظر أمامها فى ذهول فلا ترى حياة سوى أنواع

---

(١) منها " يوم عادت الملكة القديمة " صدرت سنة ١٩٨٢ ، وزعنفة الظهر يقابل الفك المفترس صدرت سنة ١٩٨٣ ، وعندما جلست العنكبوت تنتظر والحياة والموت فى بحر ملون ، والدلفين يأتى عند الغروب ، ط بيروت سنة ١٩٨٣ .

عدة من الأسماك كانت تزحف على الأرض وسراطين مختفية داخل أصداف وسلاحف ضخمة تخرج من الماء ، وطيور الفرقاط المتوحشة .

ويصفها أيضاً عندما تملكتها مشاعر الخوف والقلق من وجود أشباح أو مخلوقات خفية بهذه الجزيرة بالرغم من إيمانها بأن كل أولئك حديث خرافة .

وهنا تقارن حالتها تلك بحال " حي بن يقظان " الذى ولد فى احدى الجزر دون أب ولا أم ، وتقارن بين الموقفين ستواجه الوحوش نفسها التى كان حى يدفعها بعصاه ؟ - تذكرت حياً أيضاً عندما غالبها إحساس مفاجئ بالعطش والجوع فقد عثرت عليه ظبية تولت رعايته وإطعامه ، فمن أين لها هى بظبية ترعاها أو سلاحاً تصطاد به ؟ وهدأ جوعها عندما أكلت بيضة طائر " الخَرْشنة " أو السنونو البحرى وروت ظمأها من أحد الجداول التى أرشدتها اليه طيور الخرشنة " .

تمالكت الفتاة نفسها ، وكان عليها إعمال عقلها واستغلال ذكائها وخبراتها التى اكتسبتها خلال سنوات عمرها القليلة . لتظهر لنا فتاة جادة تحاول التكيف مع الوضع الجديد الذى فرضته الظروف عليها . ففى النهار يترعى كل شئ انتباهها من مظاهر الطبيعة حولها ومن الحيوانات الغريبة التى تعيش على هذه الجزيرة ، والهياكل العظيمة التى استوقفتها وتبينت أنها " لدلفين " ربما مات فى البحر وألقى به المد الى الشاطئ وصار جسمه طعاماً للوحوش . وتتساءل : وأين هى إذن هذه الوحوش التى جردته من لحمه ؟

وهى فى الليل تتمنى تنفيذ فكرة حى بن يقظان وحصوله على النار بعد أن حك قطع الزلط فتولد منها الشرر ، وفعلاً تنجح فى الحصول على النار التى تستخدمها لانضاج الطعام وإبعاد الحيوانات عنها .

كانت تفترش الرمال الناعمة وتلتحف بالسماء وتتأمل نجومها الساطعة "وكأنما كانت السماء تدنو منها أو هى التى تندفع نحوها لتلتحم بها وتصبح هى

وهذا الكون الهائل العجيب كتلة واحدة [1] ولتكون الفرصة سانحة للكاتب لاستعراض معلوماته عن النجوم والمجرّات باستفاضة .

كان يداعبها الأمل بين لحظة وأخرى بقدوم سفينة تقل أباها لينقذها ، فأرادت أن تلفت النظر بوجودها على هذه الجزيرة فبحثت عن غصن قوى " وخلعت صدارها الصوفى الملون ، وربطته الى طرف الغصن من كُمّيه فرفرف فى الهواء كالراية " [2] .

ظلت الفتاة تتأرجح بين الأمل واليأس والرجاء الى أن ظهر لها دلفين صغير طفا فوق سطح الماء ، وبظهوره وجدت من يسليها وتتبادل معه الحديث بصوت مسموع وتحكى له عن ذكرياتها ويصغى هو كالمفتون لصوتها . ينام معها فى كهفها وتعنفه عندما يصرخ ، أسمته " فِنْ فِنْ " واذا نادته تقول له : " اطلع يا فِنْ فِنْ " كما كان يقول على بابا "إفتح ياسم سم " .

وشيئاً فشيئاً تتجاوب الفتاة مع البيئة الجديدة ، بل نجدها تشارك فى بعض المعارك التى كانت تنشب بين طيور النورس وصغار الخرشنات وتهب هى لنجدة الصغار دائماً .

ثم تبدأ فى إجراء عملية تشريح لسرطان بحرى حبسته ولم تقدم له أى طعام فمات . قفز الى ذهنها ما فعله حىّ عندما ماتت الظبية التى ربته . واستطاعت اجراء عملية تشريح بواسطة قطعة من الصفيح ، وفكرت فى الاجابة عن عدة أسئلة تميزت بطابع علمى ، وقامت بتسجيل ملاحظتها واكتشافاتها التى توصلت اليها على جدار الكهف الذى كانت تعيش فيه كما يفعل كبار المكتشفين ، ولتفاجىء بالاكتشافات أبويها عندما يأتيان لإنقاذها ولتساهم أيضاً فى صرح العلم .

---

(١) السابق ٦٧ .

(٢) السابق ٥٠ .

نجحت أيضاً فى عمل جبيرة لطائر كسر جناحيه وأنقذت حياته وتولت رعايته حتى تم شفاؤه وأصبح صديقها هو الآخر وأسمته " مينو " .

وأخيراً أبصرت مشهداً لايضارع فى روعته فكان ثمة قارب تجارى يشق الماء بسرعة مقترباً من الشاطئ ، وخلفه سفينة كبيرة أسرعت نحوها ، وهبط منها بعض البحّارة لتحاصرها الأسئلة ، وبأنفاس لاهثة تحكى لهم عن مغامراتها واكتشافاتها بعد اطمئنانها على سلامة أبويها ، وتصطحبهم الى كهفها ليقفوا مبهورين أمام جدرانه التى امتلأت بالنقوش ، وأرتهم مشرط التشريح والملابس الغريبة التى صنعتها من ريش الطيور .

وكان من الممكن أن ينهى الكاتب الرواية عند هذا الحد أى عند مشهد انقاذها ، ولكنه واصل تقدمه فى الرواية حيث قدم لنا مشهداً أكثر روعة وإثارة مزجه بالمشاعر والأحاسيس ، وكان هذا المشهد بين الفتاة وبين صديقها " مينو " فى البداية ، فقد حرصت ألا تنظر نحوه عندما استقلت القارب كى لاتضعف أمامه ، كان يتبعها هو بنظره دون أن يجرؤ على الاقتراب منها خوفاً من مرافقيها ، وماكاد القارب يبتعد حتى طار نحوها واستقر فوق كتفها لتخفته فى انفعال وهى تفكر أنه اختار ألا يفارقها فانها صارت جزءاً من بيئته الطبيعية .

ثم تذكرت الدلفين فنادت عليه بأعلى صوتها على طريقة على بابا " اطلع يافِنْ فِنْ " وسبح خلفها ، والبحّارة فى ذهول من هذا المشهد العجيب .

كانت الفتاة تشعر بسعادة غامرة وفجأة تُصدم فى مشاعرها عندما تقابل قسوة قبطان السفينة الذى كان يرقب المشهد من بعيد ، فأصدر أمراً للبحارة بإلقاء شبكة على الدلفين ولم يستجب القبطان لتوسلات الفتاة بأن يدعه وشأنه . واستسلم (فِنْ فِنْ) لهم وبدا أنه يعانى من صعوبة فى التنفس فأسرعت نادية اليه ورشته بالماء وربتت على رأسه وقدمت له سمكة لكنه رفض فتح فمه .

وفجأة ارتفعت صيحات لدلفين كبير يقترب بسرعة من السفينة كان ثمة رتّة توسل ورجاء وتبعته مجموعة أخرى من الدلافين . وكان الصغير يسمع هذه الصيحات ، ونادية تواصل توسلاتها . وهنا يتراجع القبطان أمام هذا المشهد مقرراً الافراج عنه. وتدافعت الدموع الى عينى نادية وهى ترى الحيوانين يتبادلان اللمس ثم يقفزان عالياً فى الهواء كأنما يعبران عن سرورهما ثم غاصا فى الماء .

ومن الواضح أن الرواية بعيدة عن قصص الخيال العلمى ولاسيما فى اتكائه على " المخترعات " الآلية ومجاوزة الفضاء الخارجى والتعامل مع الخوارق ، إلا أنها مع ذلك لاترفض التسمية من قبيل التوسع ، وتبدو عادية جداً بمواقفها الانسانية العميقة وحفولها بالمشاعر العميقة التى تربط بين البشر والحيوان ، وبين صنوف الحيوانات نفسها ، بجانب أنها تظهر لنا قسوة الانسان فى بعض المواقف .

وقد أتقن الكاتب توظيف معارفه عن البيئات الساحلية البعيدة ، فوصف طبيعتها ، وحيوانها وأسماكها العجيبة وصف خبير بها ، ودارس لصفاتها وألوانها، وأشكالها ، وأسلوب الحياة لكل منها . كحديثه عن أنواع الأسماك مثل الكوكل ، والبَرْونق ، والحلزون البحرى ، والبطلينوس[1] ، والبَيْدُوك ذى الصدفتين الذى " أعفى نفسه من مهام التجوال والبحث عن الطعام ، فقبع فى حفرته التى ثقبها بالأشواك الدقيقة فوق صدفتيه ، ومد منها أنبوبتين طويلتين تتحدان قرب سطح الصخرة فى أنبوبة واحدة ، يتلقى بها الماء ثم يطرده ، بعد أن يحصل منه على المواد اللازمة لعمليتى التنفس والتغذية " .

واستقطب الكاتب بجانب قصة حى بن يقظان حكايات السندباد البحرى ومن أبرز ذلك حلمها الذى راودها بعد أن استبد بها اليأس ، فكان بمثابة الأمل والمنقذ لها ، " ومن المحتمل أن يسمع السندباد البحرى بالأمر ، فيهم به ويعرج

---

(١) السابق ٦٠ .

بـ فينة لانقاذها ، ثم يذهبان سوياً لانقاذ أبيها أو العكس واذا كان السندباد فـي بحار الصين ، فكم يستغرق من الوقت حتى يصل الى جزيرة واق واق هذه ، قـد لايستغرق الأمر غير بضع ثوان ، اذا كان مازال يحتفظ بالبساط السحرى ، لكن أهـو ذلك الذى كان لديه البساط السحرى " (١) .

لقد غلب على الرواية الوصف والسرد وقل فيها الحوار وان تكن اعتمدت على المنولوج الداخلى فى أكثر المواقف ، ويتبين ذلك من المشهد الذى ظهر فيـه الدلفين " التقت نظراتهما وخيل اليهما أنها رأت تعبيراً غريباً يلمع فى عينيـه كما لو كان بينهما سر مشترك لايعرفه أحد سواهما ، أيكون هو الدلفين الـذى أنقذها وحملها الى الجزيرة ؟ وهل جاء الآن للاطمئنان عليها " .

وعندما حل الظلام وشعرن بالاعياء والرغبة فى النوم قالت له :

" سأتركك الآن لأنام ، تصبح على خير "

واستيقظت فجأة على أصوات حادة صدرت منه وعندما هرعت اليه . لـزم الصمت فخاطبته معنفة " لماذا تصرخ ؟ ألا يمكننى أن أنام قليلاً ؟ أيجب أن أبقى بجوارك طوال الوقت " (٢) .

وهناك أيضاً ثلاثة مستويات من الصراع صراع البطلة ضد البيئة الجديـدة لاثبات وجودها وتعلقها بالحياة ، وصراع بين الطيور وبعضها ويكون البقاء للأقـوى فى البداية ثم تتدخل هى لانقاذ صغار الطيور كما حدث عندما هاجم نورس عشـاً للخرشنات والنقط كتكوتاً بمنقاره رغم الصرخات الغاضبة للأم التى حلقت غير بعيد " هبت نادية الى نجدة الكتكوت البائس ، فأحاطت النورس بساعديها حائلة بينـه وبين الطيران ، وأجبرته على التخلى عن فريسته " وأما الأخير فصراع الانسـان ضد الحيوان ورغبته فى اصطياده غير مهتم بصيحات أهله .

---

(١) السابق ٧٤ .

(٢) السابق ١٠٦ ، ١٠٧ .

إن قصص الطبيعة المعنية بعلم الحياة مجال لاقت يشدّ اليه الناشئة في كل زمان ومكان . وفي ظني أن تحميل المتعة العلمية عن هذه الطريقة أفضل بكثير من التوغل مع الفانتازيا واللاواقعي المطلق . ويجوز لكاتب هذا النوع من القصص - كما فعل صنع الله ابراهيم - أن يهمل الحبكة القصصية التقليدية تاركاً مقتضيات اصطلاحاتها كالحكي والحوار والشخصية والاقتصار على الوصف الهادف .

وفي ظني أيضاً أن " القصصية " غالباً لاتعنى بهذا الجزء أو ذاك من أجزاء العمل القصصي ، وانما تعنى بالبنية متكاملة ودالة ، وقد وضحت الدلالات تماماً عند صنع الله ابراهيم .

وأنا لا أقرظ هذا الكاتب بذلك ، وانما انبه فقط الى ضرورة التصرف في عدد من القيم النقدية ، طالما كانت البنية صالحة لأن تفضي أو تبث أو تمنح .

* * *

وعلى هذا فان " أدب الناشئة القصصي وعلوم المستقبل " يستهدف أساساً تربية الانسان المفكر الايجابي منذ الصغر .

وإن القصص في هذا الحقل متنوعة حتى إننا نعجز عن حصرها فضلاً عن بيان تقنياتها ، ومع ذلك فهي تتفق في شيئين :

أولهما : تنشيط خيال الناشئة وتوجيهه الى ما ينفع الناس .

ثانيهما : امتاع الناشئة بأسلوب الحكي المبسط الذي لاتضيع أفكاره في بلاغيات الكتاب الكبار .

وأخيراً إن " الحبكة " في قصص الناشئة القائمة على الخيال العلمي " أقل " غرابة وعنفاً مما يصدر عنه الكتاب الذين يتجهون الى الكبار ، واعتماد " الحكاية المثيرة " فيها أساساً جعل الاتجاه الى السرد الوصفي واجباً لبيان وضوحه أو استوائه أو غموضه في بعض الجوانب ، وفيما عدا ذلك لامجال لتطبيق الأحكام الفنية التي خصصت لتقويم فن القصة بوجه عام .